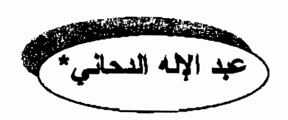

المنظومة
ALMANDUMAH



موقف المخزن من حصار الإسبان لصخرة جبل طارق سنة 1779 من خلال الوثائق الإسبانية



استغل الإنجليز انشغال الإسبان في بداية القرن الثامن عشر بحرب وراثة العرش : فنزلوا بصخرة جبل طارق سنة 1704 بقيادة الضابط روك Rooke . وإذا كان هذا الضابط قد أعلن في البداية أنه احتل الصخرة باسم أحد الأمراء الإسبان المرشحين لولاية العرش، فإنه لم يلبث أن كشف عن نواياه ، بجعلها ملكا للتاج البريطاني. واتخذ امتلاك الإنجليز لصخرة جبل طارق طابعا شرعيا بعد نحو عشر سنوات، عندما اعترفت إسبانيا بمقتضى الفصل العاشر من معاهدة أواتريخت Utrecht (1) بأحقية الإنجليز في امتلاك الصخرة ، إذ جاء فيه :" إن الملك الكاثوليكي يقر بنفسه، ويلتزم نيابة عمن سيخلفونه، أن جبل طارق بأكمله، سواء المدينة أو الحصن أو الميناء أو التحصينات ملك لبريطانيا العظمى يحق لها التمتع به بكيفية مطلقة وإلى الأبد"(2).

ورغم هذا الاعتراف، الذي تم تحت إشراف فرنسا وهولندا والبرتغال، فإن الإسبان حاولوا مرات عديدة استرجاع صخرة جبل طارق مستعملين الطرق الدبلوماسية حينا والقوة العسكرية أحيانا أخرى. لقد بلغ عدد الحصارات التي ضربها الإسبان على الصخرة، أربعة عشر حصارا غير أن أهمها على الإطلاق

* أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة – الرباط.

هو الحصار الرابع عشر الذي يطلق عليه الحصار الكبير El gran Sitio والذي ابتدأ سنة 1779 ودام حوالي ثلاث سنوات. فما هي الظروف العامة التي فرض فيها هذا الحصار ؟ وما هو موقف المغرب من هذا الصراع ، خاصة وأن موقعه الجغرافي يفرض عليه التفاعل مع كل الأحداث في جبل طارق ؟

ظروف الحصار :

فرض السلطان سيدي محمد بن عبد الله حصارا عسكريا على مليلية سنة 1774. ورغم المشاكل التي تعرض لها الإسبان، فإن الإمدادات كان لها دور حاسم في فشل الحصار. ولا نعني هنا بالإمدادات تلك القادمة من شبه الجزيرة الإيبيرية فحسب، بل أساسا إمدادات بعض الدول الأوربية التي هبت لنجدة إسبانيا. وبمجرد انتهاء الحصار المغربي لمليلية سنة 1775 بدأت تلوح في الأفق ملامح انتقام إسباني محتمل، تجلى في شروع إسبانيا في حشد أعداد كبيرة من قواتها العسكرية. ونقل المغرب مخاوفه للإنجليز، فلم يزد القائم بالأعمال الإسباني في لندن فرانسيسكو سكارنو Francisco Scarno على أن طمأن الإنجليز بأن ذلك الاستعداد ليس موجها ضد المغرب. والواقع أن عدة مؤشرات كانت تبرر التخوفات المغربية، فقد بعث دي كريما لدي De Grimaldi رسالة لأحمد الغزال حملت شروط إسبانيا لإقرار السلم، وكتبت الرسالة بعبارات صارمة(3)، ولذلك سارع المخزن إلى طلب إمدادات بالأسلحة من طرف الحكومة الإنجليزية. وبالفعل وصلت سفينة بريطانية تحمل شحنات من الأسلحة إلى ميناء طنجة(4) وبدا أن الإنجليز كانوا حريصين على استمرار هذا الوضع المتوتر بين المغرب وإسبانيا، لأن من شأن ذلك تكريس امتيازاتهم في المغرب وتعزيز مكانتهم لدى السلطان. وانتبه الإسبان إلى نوايا الإنجليز فبعثوا خوسي بولطاس Jose Baltas في سرية تامة إلى المغرب ليبحث إمكانية إعادة الثقة إلى نفوس المغاربة، وبالتالي تثبيت أسس الصداقة بين الدولتين (إسبانيا – المغرب)، ولم يكن أمامه إلا إظهار حسن نوايا الإسبان والتأكيد على عدم صحة المعلومات التي ينقلها الإنجليز للمغاربة حول الأطماع الإسبانية(5).

والواقع أن تعبئة الجيوش الإسبانية ورفع درجة الاستعداد لديها لم يكن مرتبطا برغبة في الانتقام من المغاربة بعد حصار مليلية، بل كان ذا علاقة بتطورات دولية حاولت إسبانيا استغلالها أحسن استغلال.

لقد كانت بريطانيا تواجه صعوبات كبيرة في القارة الأمريكية نتيجة حروب الاستقلال التي خاضتها في وقت ناصبتها فرنسا العداء وأيدت رغبة الأمريكيين في الاستقلال. ولما كانت إسبانيا على وئام تام مع فرنسا، فقد رأى ملك إسبانيا كارلوس الثالث أن الوقت ملائم لاسترجاع جبل طارق من الإنجليز، وعبر عن نيته تلك بالدخول في مفاوضات مع الإنجليز أبدى خلالها الإسبان استعدادهم لفك تحالفهم

مع فرنسا شرط تخلي الإنجليز عن جبـل طـارق. ولكـن الإنجليـز، وإن أبـدوا استعدادهم للتخلي عن جبل طارق للإسبان، فإنهم ربطوا ذلك بشروط لم يكـن مـن السهل على الإسبان قبولها ومنها(6) :

ـ تنازل الإسبان للإنجليز عن بعض الأراضي في أمريكـا، خاصـة الـهندوراس وبورتوريكو.

ـ دفع مبلغ مالي ضخم كتعويض عن التحصينات والبنايات التي أنشـأها الإنجليـز في جبل طارق.

ـ توقيع إسبانيا معاهدة سلم مع بريطانيا وإعلان فك تحالفها مع فرنسا.

كان الإسبان يرغبون في استرجاع جبل طارق دون شروط، وفـي أحسـن الأحوال مقابل تعويضات مادية. أما وأن الأمر سيتطلب منهم التنـازل عـن أراض في أمريكا وشمال إفريقيا (وهران)، فقد بدا لهم أن خوض حرب في هذه الظـروف سيكون أفضل.

الإسبان يحاصرون جبل طارق :

كان ملك إسبانيا كارلوس الثالث حريصا على استعادة جبل طـارق بكـل الوسائل المتاحة. فقرر أن يستعمل الوسائل الدبلوماسية والضغط العسـكري فـي وقت واحد. لذلك، وبموازاة مع تواصل المفاوضات الإنجليزية الإسبانية، أمر قـواد جيشه بفرض الحصار على جبل طارق. وهكذا أسند للأمـيرال بارسـيلو Barcelo مهمة قيادة القوات البحرية، وللجنرال ألفـاريز سـوطومايور Alvarez Sotomayor مهمة قيادة القوات البرية التي بلغ قوامها حوالي 14 ألف رجل(7).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن معاناة المحاصرين الإسبان لم تكن تقل عما يلاقيه المحاصرون الإنجليز في جبل طارق، فقوة الأسطول الإنجليزي كانت تمكنـه بين الفينة والأخرى من إلحاق الهزيمـة بالبحريـة الإسـبانية ومـد المحـاصرين بالإمدادات، مثلما حدث في 16 يناير 1780 عندما هاجمت قوة بحرية إنجليزية سـفنا إسبانية مكلفة بالمراقبة بين قادس وسانتا ماريا، ودمرتها لتصل بكل أمان إلى جبـل طارق حاملة معها إمدادات للسكان والجنود المحاصرين(8).

موقف المخزن من هذا النزاع :

مما يلاحظ على موقف المخزن من هذا النزاع الإنجليزي الإسـباني، أنـه حاول الاستفادة قدر الإمكان من الطرفين معا، حسب تطور الصراع، ويمكـن هنـا التمييز بين مرحلتين :

ا – المرحلة الأولى : الشهور الأولى لبدء الحصار (أواخر سنة 1779 إلى 1780:

شهدت هذه المرحلة وقوف المخزن إلى جانب الإسبان ، فبمجـرد انـدلاع المواجهات العسكرية، وضع المخزن ميناء طنجة تحت تصرف الإسبان، وسمح لهم بمطاردة السفن الإنجليزية داخل المياه المغربية، وربما كان هذا الموقف ناتجا عـن

الظروف الطبيعية القاسية التي كان يعيشها المغرب خلال هذه الفترة، إذ اجتاح الجفاف جل الأراضي المغربية وحدث نقص كبير في إنتاج الحبوب، فرض ضرورة الاستيراد من الخارج.

وعبر الإسبان عن سخاء مفرط، فهبوا لتلبية حاجات المخزن من هذه المادة الحيوية للتخفيف من حدة الأزمة. وتثبت الوثائق أن إسبانيا زودت المغرب بكميات من القمح والأرز ومواد أخرى سنة 1780 (9) . ورغم محاولات الإنجليز المتكررة لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله لدفعه إلى اتخاذ موقف الحياد ، فإن السلطان واصل دعمه للإسبان فسمح لهم بمراقبة مدخل مضيق جبل طارق انطلاقا من ميناء طنجة للحيلولة دون اقتراب القطع البحرية الإنجليزية، كما منع السلطان أية سفينة أوربية، حامت الشكوك حول إمكانية توجهها إلى جبل طارق، من شحن السلع بالمراسي المغربية. وكان طبيعيا أن ترتفع أصوات الإنجليز بالاحتجاج لدى المخزن، لدرجة أن السلطان طرد القنصل الإنجليزي في طنجة لوجي Logie ومعه ما يقارب مائة من الرعايا الإنجليز(10). وزاد السلطان على ذلك بأن منع الإنجليز من استخدام مينائي تطوان وطنجة ومن التزود بأية مادة حيوية.

ب ــ المرحلة الثانية : من سنة 1781حتى نهاية الحصار 1782 :

لم يلبث الدعم المغربي لاسبانيا في حصارها لجبل طارق أن بدأ يضعف ابتداء من سنة 1781 ، فقد أصدر السلطان أوامره بأن يسمح للإنجليز بممارسة التجارة في الموانئ الشمالية خاصة طنجة وتطوان، وأمر برفع الحجز عن السفن الإنجليزية الراسية بتطوان منذ 1780 (11). فما هو سبب هذا التحول ؟

يبدو أن المغرب تكبد خسائر كبيرة من جراء وقوفه إلى جانب الإسبان فمن جهة حرم من عائدات الرسوم الجمركية التي كان يؤديها التجار الإنجليز، ومن جهة ثانية تزايدت حاجات الجيش الإسباني إلى المؤونة، فكانت تنقل إليه كميات كبيرة من المواد الغذائية من مراسي المغرب الشمالية، في وقت كانت حاجة المغرب إلى هذه المواد ماسة بفعل الجفاف الحاد. وحسب رسالة من القنصل الإسباني بطنجة سالمون Salmon إلى الوزير فلوريدا بلانكا Florida Blanca مؤرخة في 2 فبراير1782، فإن السفير المغربي ابن عثمان فسر هذا التحول بأنه ناتج عن احتجاج الإنجليز ورغبة السلطان تبعا لذلك في تحقيق نوع من المصالحة فبما أن الإسبان استغلوا موانئ الشمال خلال الفترة السابقة، فقد جاء دور الإنجليز ليستفيدوا أيضا، خاصة وأن الإسبان لم يعبروا عن رغبتهم في تجديد طلب الاستفادة من هذه الموانئ(12). وبذلك عاد المخزن إلى اتخاذ موقف الحياد بهدف الاستفادة من الطرفين فاستقبل السلطان المبعوث الإنجليزي روجي كورتيس Roger curtis، ووقعا فصولا ألحقت بمعاهدة 1760 التي سبق أن وقعها المغرب مع إنجلترا. كما سعى السلطان إلى طمأنة الإسبان، فسمح لهم باستغلال موانئ الشمال شرط أداء نفس الرسوم الجمركية التي يؤديها الإنجليز، وتأكدت عودة المغرب إلى

سياسة الحياد بالسماح لتجار جبل طارق بالتزود بالمواد الغذائية كما جرت العـــادة قبل اندلاع النزاع الإسباني الإنجليزي سنة 1779. كما أصبح بإمكان السفن المغربية دخول مياه جبل طارق من أجل الإصلاح(13).

الهوامـــش :

1) — أوتريخت : مدينة هولندية تقع جنوب أمستردام.

2) – Lopez de Ayala, Ignacio – Historia de Gibraltar, Madrid, 1782, pp : 313 – 314.

وهذا يثبت أن مطالبة المغرب باسترجاع ثغوره المحتلة (سبتة ومليلية والجزر) تكتسي مشروعية أقوى بكثير من مطالبة الإســـبان باسترجاع صخرة جبل طارق، ذلك أن المغرب لم يعترف أبدا بمشروعية الاحتلال الإسباني وظل دائما متشبثا بأراضيه .

3) — أنظر رسالة دي كريما لدي إلى الغزال ، مورخة في 19 مارس 1775 في :

Archivo Historico Nacional, Estado, Legajo 4. 348.

4) — رسالة باتشيكو Patcheco إلى دي كريما لدي مورخة في 6 يوليوز 1775 راجعها في :

Archivo Historico Nacional, (A.H.N) , Estado , Legajo4.312.

5) — رسالة بولطاس إلى فلوريدا بلانكا مورخة في 2 غشت 1777، راجعها في :

(A.H.N) , Estado , Legajo4.312.

6) — لمزيد من التفاصيل حول هذه الشروط ، أنظر :

Juderias, Julian – Gibraltar, Madrid, 1915, pp : 26 – 27.

7) – Ibid . p : 24.

8) – Ibid , p : 25.

9) — رسالة أوريي O'REILLY إلى فلوريدا بلانكا مورخة في 6 نونبر 1780

(A.H.N) , Estado , Legajo4.312.

10) — رسالة سالمون إلى فلوريدا بلانكا مورخة في 15 دجنبر 1781 .. (A.H.N) , Estado , Legajo4.312.

11) — تذهب بعض الوثائق الإسبانية إلى أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله سمح للإنجليز باستغلال مينائي طنجة وتطوان مقابل دفـــع مبلغ مالي.

12) — رسالة سالمون إلى دي فلوريدا بلانكا مورخة في 2 فبراير 1782

(A.H.N) , Estado Legajo4.312.

13) - (A.H.N) , Estado , Legajo4.312.